بشر فارس .

توفي في القاهرة في شباط (فبراير) الماضي بشر فارس عن عمر يقل عن الستين ، تاركا للنقد وللتاريخ سطوراً دقيقة اعطى لكل كلمة فيها وقفة متميزة. فلكل كلمة عنده حلقتها تدور فيها دورة اناقة متسمة بالسكر . هذه الكلمة عنده نطفة حياة تفكر وتهمس وتتلون تنقلاتها في الجملة باكثر من مزاج . لقد كان رمزياً متزمتا ، وبينه وبين اديب مظهر على الرغم من قرب الزمن بينهما تباعد في الغوص على الصنعة اللفظية ، هذه الصنعة التي ارادها بشر فارس احياء لبواطن المعاني المتحفزة في اجواء اللاوعي . كان يقول : « عندما انظم يلفني شيء كالغمام يتيه معه بصري وتتقد البصيرة فادخل في حال غريبة ، ويهجم علي اللفظ حاملا في حروفه معنى او صورة ادهش لهما . وانا كأني اضمهما الى صدري اخشى عليهما ان يفرا او ان يتهشما لانهما سقطا الى يدي على غير وعد . فاليدان كالغريبتين عنهما اليدان من الحس المباشر، اما المعنى والصورة فهما من وراء الحس .واخوف ما يخاف على ما جاء من وراء الحس ان يعبث به الحس او يبطش ... »

صوفية التعبير هذه مكنت نفوره من استغلال المعاني الواضحة المستنفذة في الالفاظ ، وبقيت العبارة عنده حضن ايماء لا يستقر :

ما روعة اللفظ المبين
السحر من وحي العبارة .

وفي قصيدته « الشاعر » يتحدث عن نفسه قبل غيره اذ يقول في الشاعر :

في كفه الارض الى غورها
من قلق دارت على سرها
وهو يدري انها ظل السماء .
وهو حدس شام رفات الخفاء
نشق الحق على جفن المساء
نشل البزة من جسم الغفاء
نقع الدنيا على لوح الرجاء ...

حدسه المغترب في نثره وشعره ، في مسرحياته وقصصه ، لم يغفله عن الاهتمام بمخطوطات صفراء في خزانة تراثنا . ولعل اكتشافه « لكتاب الترياق » ودراسته حوله اوضح دليل على امانته لثقافته العلمية وتحصيله الثقافي في مصر واوربا . اما دائرة المعارف الاسلامية فقد حفظت له اكثر من بحث وخاصة في موضوع العرض والشرف عند عرب الجاهلية .

ولقد اعطى المسرح اهتماماً كبيراً ، ومسرحيته « مفرق الطريق » سبقت غيرها في الظهور على المسارح الاوربية ، اما الموسيقى فبقيت بالنسبة له هواية جدية ، وكان يقول باننا لن نسترجع مجدنا الموسيقي الا بالعودة الى تراثنا القديم ، وليس من الضعف ان نعترف بان بين الموسيقى الغربية والشرقية فلوات لا تقطع .

اما واقع العالم العربي فلقد بلور في ذهنه نظريات بقي فيها متمسكا بالترفع الفنان . قال : « ان الفرق بين الامة والشعب هو موضوع الساعة. الشعب من الالفاظ التي اصبحت تلاك جذباً للجمهور . اما الامة فلفظة تترفع عن ان يتلفظ بها لسان لانها لا يتم مدلولها في الذهن الا باركان معلومة مستقيمة ، او لها تآلف الافراد لا على صعيد لغوي فقط ولا على صعيد مادي فقط ولا على صعيد جغرافي فقط، بل يقوم على هذه جميعا مع تغلب عنصر على عنصر بحسب الاحوال وعلى رأسها جميعا الاخلاص في تكوين مله افراحها واتراحها ، آلامها وآمالها

بهجاتها وغضباتها تجري في نفس واحد . »

اما دور الادباء في هذا الصدد فدور التوجيه الفعلي ، وعبرة توجيههم في طريقة الكتابة . ويكمن الخطر « في ان يزلق الاديب الى الجلجلة اللفظية والاندفاق الحسي والحماسة الطائشة . فالخير ان يكون هو اما ناقدا فيتبصر برجاحة واما اديباً صرفاً فينقل مشكلات القوميـة من صعيد الواقع الى افق الفن ويحول العقد برشاقة الفنان تحويلا فيه الوان الاشارة الموحية والمجاز والرمز ، وذلك في الشعر او في المسرح او في الموسيقى . »

ولعل هذا القول دفاع غير مباشر عن موقفه هو من الادب والفن . فلقد كان بشر فارس ملتزماً تجاه « الفن للفن » ، وقد سار في غمرة هـذا الاتجاه شاعراً وناثراً يرعى طرب الايماء وصوفية الصور في الالفاظ والمعاني وهو ابعد ما يكون عن الادب « الافهامي التوجيهي » .

يقول في مسرحية « مفرق الطريق » على لسان سميرة : « تريدون الامور واضحة خوفا على سلامة اذهانكم . اينبغي لكل امر يحصل ان ينساق الى ناحية معلومة في ملتويات افهامكم تنتظره ؟ متاع يندرج في خزانة . لا شيء اكره الى الحياة من اطار يعد لمجراها . ان الروح والفكر مع مـا يجيش فيهما من نزعات ووثبات ينكران السد والحد. انكم تفتكون بهما . »

ومسرحية « مفرق الطريق » تنقل بشر فارس في سرائر اشخاصها مرتاحا ، لانه قال لهم كل ما يريد هو ان يقوله ، هو الذي خضع لبصيرتـه المتفتحة على حقيقة الوجود والحياة طريقاً خصباً للتناقض وسوء التفاهم . اليس مـذهلا ان يجمع هذا الاديب في قلبـه اتزان العالم المنقب واتقاد الحدس واللاوعي ؟

في شخصيته جيـوب ان لم تشترك في الخسارة فانها على الاقل قـد اشتركت في الكسب . فهو لبناني الاصل والحنين ، مصري المأوى والشمس ، عربي اللسان ، شرقي الذوق ، غربي الاندفاع في الابحاث الاستشراقية . ولقد جارى المستشرقين في اساليب فضولهم وكتب معظم ابحاثه هذه باللغة الفرنسية . اذكر منها دراسته حول منمنمة دينية تمثل الرسول من اسلوب التصوير البغدادي ، ودراسته حول « كتاب الترياق » ، و« الفن القدسي في التصوير الاسلامي الاول » ، ثم « سر الزخرفة الاسلامية » ولقد لازم هو اجواء الزخرفة والتصوير الاسلامي وجعل من بيته منمنمة الصرح الفني الاسلامي .

وشخصية بشر فارس حيوية مغامرة انسانية في غربة الترفع . فلقد كان هربه من المألوف السطحي المبسط نوعا من التطير المنفرد والمتميز . كان متفرداً بامانته في لقطات بصره ، ولكنه كان يشكو تخوف الناس من غموضه ويرى ان هـذ الغموض النابض هو المدرجة الى السر الجارف الارحب . بشر فارس الاديب غير بشر فارس رفيق المخطوطات والاصول المهمورة . انه في الابداع الفني يوبخ صرامة العقل ويمسكه بالآفاق المجددة . لم يشف غليله المنطق المسرّح ، فراح يواكب حدسه في مسامرات الاعماق . مسرحيته الاخيرة « جبهة الغيب » مسامرات اعماق كلها ، ولذلك اعترف هو انهـا ستبقى سفراً للقراءة كاثر ادبي لا كأثر مسرحي . اما نثره فطريقة تستحق الوقفة والتعليق : لقد كان اقرب المقربين الى مفاتيح اللغة واصولها ، ولكنه مع كل ذلك سرح المعاني من قيود الالفاظ التقليدية واكد ان للفظة لونا وهمسة وشرفة . لتذوّق القلة كتب بشر فارس الاديب ، فلم تتكاثر الايدي المصفقة حوله . وكان يشعر بذلك ويجيب عليه بحرقة لم تشله . ولكنه وان ارهف الكلمة بدوار ايماء طويل المدى ، وان لم يترك الكلمـة ترقد وتنام ، فانه على الاقل لم يطعمها من سراب التفاهة او من خدر السقم بل من خدر الصوفية .

في فنه امتداد غيبوبة ، ظلله كثيرا استرساله المنسرح فيها . ولكن تاريخ التجديد ، تاريـخ التعبير المغامر ، لن يظلمه .

نور سلمان